الأستاذة وصال طالب حسن

ذكريات أب (قصة صغيرة)

كانت سهرة عائلية، لكنّها اليوم شبه مكتملة على غير عادة. صدفة؟! ربّما...! والله أعلم! حديث دائر، أشعر بحال غريب، أنظر إلى الجميع، أتحدّث، أسكت، أشرب الشاي، كالعادة. لكنّي أشعر بضيق في صدري. ربّما هو الدّخان! أكاد أختنق، يجب أن أتحمّل، ستنتهي السّهرة بعد قليل. الضّيق ازداد، وطالت السّهرة، أشعر بالإختناق، **آخذ نفساً عميـقاً**...!

ماذا جرى؟!

لقد بقي النّفسُ في داخلي.

لم يخرج بعد.

صمتٌ؟! إنهم لا زالوا يتكلّمون ويضحكون!

أسمع، أرى ولكن! لا أشعر بشيء! لقد ذهب الشّعور منّي! لقد تسمّرت عينايَ في مكانهما. في الدّائرة ذاتها توقّف مدى النّظر.

ماذا؟ يا إلهي! سأصرخ ربّما ينتبهون!

أصـرخ، لا جدوى. لقد بقي الصّراخ في داخلي.

لا أقوى على الحراك يا ربّي! فقدتُ القدرة!

أرجوكم أنظروا إليّ... أيقظوني من هذا الكابوس الموجع! هيّا...! ما بكم غافلون عنّي؟!

أخيراً، نظر أخي إليّ... لم يفقه تلك النّظرة! حدَّثَني.

– هل أنت ذاهب إلى العمل غداً؟ أريدك أن تقلّني معك.

لا جواب! ظنَّ أنّي ما سمعت! كرّر السّؤال بصوتٍ أعلى! لحظةً! الصّمت ساد. كأن صمتي انتقل إليه فجأة. أو أنّه أدرك صمتي؟! توجّم، ذُهِلَ، إنتَبَهوا له.

– ألم تسمعني؟!

قال أخي بلا وعيٍ منه منساقاً نحوي. أمسكَني، هزَّني بشدّة واستمرّ... لعلّه بذلك ينقل بعض قدرة منه إليّ.

- **إصفعني**، لا...! ليس وجهي. إصفع صمتي أرجوك.

إقترب الجميع منّي، وكلٌّ هزّني بدوره.

علا الصّراخ، أمّي، زوجتي، أختي، **إبنتي**...

- في داخلي صراخٌ من نوعٍ آخر. لا تصرخوا، أنقذوني من صرختي المتوقّفة في داخلي، لا تتخطّى صدري، أخرجوها أرجوكم.

تحضنني أمي بشدّة. أخي يُحضر الطبيب.

- لا...! إبني ليس ميتاً، إنه مغمىٌّ عليه! ماء، عطر،... وتلك الصّرخة لم تخرج.
- ها قد أتى الطّبيب، وحده نجدتي. سيعرف كيف يُخْرِجْ صرختي.

وضع سمّاعته على صدري، مرّرها على كلّ الأمكنة، لكنه لم يُخْرِج من صرختي إلا موتها. عبثاً حاول الضّغط على صدري، علّه يُخْرِج تلك الصّرخة من موتها. حاول ثانية، نقل يقينه إلى الآخرين. وفي المرّة الثّالثة فُقِدَ الأمل.

- لقد أصبحتُ ميتاً!

دَفَعَتِ الطّبيب عنّي... جاءَت إلى محيط نظرتي، وضعت رأسها فوق صدري.

- لم أفقد ولدي!...

تُكَذِّبُ الحقائق كلّها، تكذب على ذاتها، لكنّه موت! لا يكذب الموت أمّي!...

إحتضنها أخي بشدّة، فحضننا. أختي أيضاً جاءت إلى محيط نظرتي، وفعلت ما فعلته أمي.

- ماما! ماذا بكِ؟!

إنّه صوت طفلتي!!!

- لقد راح والدكِ. قالت لها زوجتي.

أبعدَ الطّبيب الجميع من دائرة نظرتي، دخلت زوجتي وطفلتي! دموع متفجّعة من عيون لم تقوَ على التّصديق بعد!

- لقد فقدتُ رفيقي... فقدتِ والدك، طفلتي...
- أبي!...
- **إبنتي تخاطبني! تهزّني**...! صمتت الصّرخة داخلي!

أرجع لي قدرتي يا ربّ! لكي لا أخيّب طفلتي!

– أبي!... آآآه... توجعينني بنيّتي! لأنّي ميت!

– أبي!...الآن فقط تألّمت. لم يكن ذلك ألم. الآن فعلت. الحياة تؤلم بنيّتي... لكنّ ألمها ينتهي. **هذا هو عذاب الموت!**

– أبي!...لا زلتُ أسمع بضعتي، أمِتْ فيَّ السّمع يا ربّ! عذراً طفلتي لم أعد أقوَ على الجواب!

دخلت طفلتي في مركز دائرة نظرتي.

حدّقي يا طفلتي... حدّقي في مركز نظرتي! لا...! لا...! لا تلتفتي...! حدّقي فقط في مركز نظرتي، فهي التي لم تمت فيَّ بعد. ربّما هي آخر مرّة يمكنك فيها أن تحدّقي، لم يعد في استطاعتي أن أبثّ لكِ الحبّ والعطف، إلا من خلال **هذه النّظرة**. خُذي، خُذي وأكثري، فأنا لم أعش إلا لتأخذي هذا الحب. ما استطعتُ يوماً أن أُفْهِمَكِ بأنّكِ، لم تكوني إلا سبباً لكي أحب. **–لم أعرف**– ولم تعرفي، كيف تأخذين منّي كلّ الحب، ما استطعتِ أن تفهمي؛ **أنّني أحبّ.**

الآن فقط، أدركت كيف أعبّر لكِ عن الحبّ، ولكنّي ما استطعت بعد. كل محاولاتي السّابقة أنتجت فقط الآن. ولكن بعد موت. مرّةً كنت أقسو عليكِ، ومرّةً تلين قسوتي... ومرّة لا أدري ما كان ينتابني... كلّ تلك المحاولات لأنني، أردتكِ أن تكوني مَنْ يأخذ منّي كلّ الحبّ. **لم تفهمي إلى الآنَ بعد!**

صغيرتي! مدّدي جسدكِ فوق جسدي، ضعي ذراعيّ حولكِ، ما زالت بعض حرارة في هذا الجسد. إنّها لكِ! كلّ ما يمكن أن تأخذي من هذا الموت. ستشعرين بدفئي مدى الحياة، مَنْ يُدفئكِ مثلي!؟ لا أحد!

صغيرتي! قولي أبي...! ردّديها إلى الأبد. لا تقولي فقدتكَ والدي. أنتِ لم تفقدِ، أنا الذي فقدت.

صغيرتي...

إقترب الطّبيب منّي، أراد أن يبعد طفلتي، عبثاً حاول؛ تشبّثت فيَّ؟! أمسكت بهذا الجسد!؟ أم أن جاذبية حبّي كانت أقوى من أن تُبْعَد!؟. **ها أنّها قد فهمت**. أزاحها. وبينما هو كذلك؛ كانت قد سقطت دمعة طفلتي في مقلتي!!!

عاد الطبيب وأغلق دائرة نظرتي. لكن دمعة طفلتي بقيت في مقلتي وأنا ميت!

أرادَ الله!

أرادَ الله؛ أن آخذ دمعة طفلتي إلى الموت، لتقول:

-إنّي في زمن والدي ما بكيت-